الأنساق الثقافية في رواية اليربوع لحسين فيلالي.

Cultural patterns in the novel The Jerboa by Houcine Filali

رفيقة سماحي [1]

تاريخ الإرسال: 2023/12/25	تاريخ القبول29-01-2024	تاريخ النشر:مارس 2024

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن الأنساق الثقافية في رواية اليربوع لحسين فيلالي؛ لما تحمله من أنساق ثقافية متعددة ولما لها من حضور قوي وخصوصيات محلية. اعتمدت في إنجاز هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي المناسب لطبيعة الموضوع الذي يقوم بوصف الأنساق الثقافية في النص المختار وتحليلها، ويمكن أن نطرح الإشكالية المتعلقة بالكشف عن الأنساق الثقافية وما تحمله من دلالات وتراكمات معرفية وتراثية تخرق أفق انتظار المتلقي.

وعليه فإن رواية (اليربوع) شكّلت علامة فارقة قبل أن تكون عملا فنيا، لما لها من ثراء نسقي ثقافي لاعتمادها أنساقا متنوعة (تراثية، واجتماعية، سياسية، وتاريخية، ونفسية).

الكلمات المفتاحية: الأنساق الثقافية، اليربوع، الصحراء، التراث.

Abstract:

This research paper aims to reveal the cultural patterns in the novel The Jerboa by Houcine Filali. Because of the multiple cultural patterns it carries and its strong presence and local peculiarities.

In completing this research, I relied on the descriptive and analytical method appropriate to the nature of the subject, which describes and analyzes the cultural patterns in the chosen text. We can raise the problem related to revealing the cultural patterns and the connotations and accumulations of knowledge and heritage they carry that violate the recipient's horizon of waiting.

Accordingly, the novel (The Jerboa) constituted a milestone before it was a work of art, because of its cultural richness due to its adoption of various formats (heritage, social, political, historical, and psychological).

***Key words**: Cultural patterns, Jerboa, The desert, Heritage.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: **رفيقة سماحي**
rafikahope@hotmail.fr

1.مقدمة: يعد النتاج السردي الأدبي ركيزة أساسية على مستوى الساحة الأدبية والنقدية، وله دور مهم في تأصيل الثقافة وترسيخ الأفكار واستحضار المعارف؛ فهو زخم فني، واجتماعي، وسياسي، وإيديولوجي، يؤثر ويتأثر بالمحيط الذي يضج بثقافات متعددة تتحكم بدورها في الكتابة والإبداع، وهذا ما نادى به النقد الثقافي ما بعد الحداثي الذي يسعى إلى إبراز تلك الأنساق الثقافية المضمرة في النص السردي والخبيئة فيه.

[1] المدرسة العليا للأساتذة ببشار/ الجزائر. rafikahope@hotmail.fr

ومن بين النصوص الروائية التي جاءت محملة بأنساق ثقافية (رواية اليربوع) لحسين فيلالي هذه الرواية التي انفتحت على معالم وأنساق ثقافية، فكانت علامة فارقة في استحضارها للواقع الجزائري الصحراوي.

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المناسب لطبيعة الموضوع الذي يقوم بوصف الظاهرة وتحليلها، كما انفتح النص على المنهج السيميائي، ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن الأنساق الثقافية في المنجز الروائي (اليربوع) لحسين فيلالي مع إبراز قيمتها داخل المنجز الروائي.

انطوت الدراسة على إشكاليات عديدة منها: كيف تجلت الأنساق الثقافية في رواية اليربوع؟ ما علاقة السرد الجزائري بالأنساق الثقافية؟ كيف عبرت رواية اليربوع عن الثقافة المحلية عبر الأنساق المضمرة داخل المنجز الروائي؟ ما دور الأنساق الثقافية داخل المنجز الروائي المدروس في خدمة الثقافة المحلية والواقع المعيش؟ أي مدى استطاعت رواية اليربوع إبراز الثقافة المحلية؟

اتبعت في هذه الورقة البحثية المنهجية الآتية:

1.مقدمة

2. نبذة مختصرة عن المنجز الروائي المختار.

3. النسق الثقافي؛ الماهية والاصطلاح.

4. الأنساق الثقافية في رواية (اليربوع) لحسين فيلالي.

5.خاتمة البحث ونتائج الدراسة.

2.نبذة مختصرة عن المنجز الروائي المختار

حظيت رواية (اليربوع) بدراسات نقدية عديدة لما تحمله من أبعاد اجتماعية وثقافية؛ فالروائي الراحل (حسين فيلالي) سلط الضوء في روايته على الخصوصيات المحلية من تراث شعبي وعادات وتقاليد وما تزخر به الصحراء الجزائرية من روايات وحكايات وأحداث ووقائع شعبية، تدور أحداث الرواية حول بطل مجهول الاسم هو مثقف وأستاذ جامعي يروي ما حدث له من وقائع بمنطقته الواقعة في الجنوب الغربي الجزائري تسمى العبادلة ببشار، كما يتحدث السارد عن بعض الشخصيات كشخصية الشيخ مبروك الذي عرف بطريقة خاصة فكان يشعل البخور بنبتة مجهولة لا يعلم أسرارها إلا هو، ويقوم ببعض الطقوس والحركات ويلتف حوله مريدوه، ثم يتحدث السارد/ البطل عن حيوان اليربوع؛ فكان البطل يجتمع مع أصدقائه في وادي قير بالعبادلة لاصطياده وكان صديقه الذي يدعى (سليمان اليربوع) محترفا في صيده فكان لا يأتيه من الباب المعلوم بل من الباب السري ويمسك به، يذبحه ويسلخه ثم يقوم بشوائه والاستمتاع بأكله رفقة أصدقائه، وسمي سليمان اليربوع كونه كان يشبهه في الشكل (قصير اليدين طويل الرجلين)، وفي الحركات (خفته)، ثم ينتقل الروائي ليتحدث عن الشيخ مبروك وسفره إلى مدينة بشار بغية بيع الأعشاب الطبية والزواحف وذهابه إلى زوجته الثالثة (مامة الكاهنة) بالقصر القديم ببشار التي كانت هي بدورها تبيع عقاقير باهظة الثمن ثم يعود الشيخ إلى منطقته العبادلة مستاءً ويرصد لنا الروائي الحوار الذي دار بين الشيخ وزوجته.

ثم يتحدث الروائي عن مدينة بشار مستحضرا شخصيات وأحداث تاريخية شعبية (الزناتي، الهلالي، الجازية..، مأساة العراق)، ثم يصف الجزائر ، ووهران وبشار وقساوة مناخها الصحراوي[1].

3.النسق الثقافي؛ الماهية والاصطلاح

1.3النسق

أ/لغة:

جاء في لسان العرب: "النَّسَقُ من كل شيء: ما كان على طريقة نِظامِ واحد، عامٌّ في الأشياء، وقد نَسقْتُه تَنْسِيقاً؛ ويخفف. ابن سيده: نَسَقَ الشيء يَنْسُقهُ نَسْقاً ونَسَّقه نظَّمه على السواء، وانْتَسَق هو وتَناسَق، والاسم النَّسَقُ، وقد انْتَسَقت هذه الأَشياء بعضُها إلى بعض أَي تَنَسَّقَتْ. والنحويون يسمون حروف العطف حروف النَّسَقِ لأَن الشيء إذا عطفْت عليه شيئاً بعده جَرى مجْرًى واحداً...، يقال: ناسَقَ بين الأَمرين أي تابع بينهما. وثَغْر نَسَق إذا كانت الأَسنان مستوية. والنَّسْق: العطف على الأول.. التنسيق: التنظيم"[2].

و في معجم العين: "النسق من كل شيء: ما كان على نظام واحد من الأشياء، ونسَّقه نَسْقا ونسقته تنسيقا، ونقول: انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت"[3].

إذن وردت لفظة نسق في المعاجم العربية القديمة بمعنى: التنظيم والعطف والتنسيق والكلام بالسجع.

ب/ اصطلاحا:

ظهر مصطلح النسق مع عالم اللسانيات "فرديناند دو سوسير" الذي استعمله عند حديثه عن مفهوم اللغة قائلا: "اللغة عبارة عن نسق من العلامات يعبر عن الأفكار، ولهذا فهي مشابهة لنسق الكتابة وأبجدية الصم والشعائر الرمزية وصيغ المجاملة والإشارات العسكرية.. ولكنها أعظم أهمية من هذه الأنساق"[4]، وإن كان سوسير قد شبه اللغة بالنسق إلا أنه رأى أن اللغة أعم من النسق وأشمل، والنسق منظم للغة وللعلامات.

وقد أطلق البنيويون مصطلح "البنية" على "النسق"، في اتساقها وتلاحم أجزائها..، فالنسق هو : "ما يتولد عن تدرج الجزئيات في سياق ما، أو ما يتولد عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية، إلا أن لهذه الحركة نظاما معينا يمكن ملاحظته وكشفه"[5]،فالنسق هو تتبع للأجزاء الصغرى للكلمات مع وجود علاقة بين العناصر الخاضعة لنظام معين منظم ومتسق.

2.3 الثقافة:

أ/ لغة:

الثقافة مأخوذة من الفعل الثلاثي (ثقف) بضمِّ القاف وكسرها. قال ابن فارس: "(ثقف) الثَّاء، والقاف، والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشَّيء. ويُقال: ثقفت القناة إذا أقمت عوجها. ورجل ثقف لقف، وذلك أنَّ يصيب علمًا ما يسمعه على استواء"[6].

وفي تهذيب اللغة لابن السكيت: "رجل ثقف لقف إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به... ويقال: ثقف الشَّيء، وهو سرعة التَّعلُّم"[7].

وعند ابن منظور: "ثقف: ثقف الشَّيء ثقفًا، وثقافًا، وثقوفةً: حذقه، ورجل ثقف، وثقف، وثقف: حاذق فهم، وأتبعوه فقالوا: ثقف لقف...ابن دريد: ثقفت الشَّيء: حذقته، وثقفته إذا ظفرت به. وثقف الرَّجل ثقافة أي: صار حاذقًا خفيفًا مثل ضخم، فهو ضخم، ومنه المثاقفة. وثقف أي: صار ثقفًا مثل تعب تعبًا أي: صار حاذقًا فطنًا. وهو غلام لقن ثقف أي: ذو فطنة وذكاء، والمراد أنَّه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه"[8].

وعليه فالثَّقافة في المعاجم العربية القديمة تحمل معان عديدة هي: الفهم، وسرعة التَّعلم، والحذق، والفطنة. وتسوية الشَّيء، وإقامة اعوجاجه، والتَّأديب، والتَّهذيب، والعلم، والمعارف، والتَّعليم، والفنون.

ب/ اصطلاحا:

الثقافة هي "الرقي في الأفكار النظرية، وذلك يشمل الرقي في القانون، والسياسة، والإحاطة بقضايا التاريخ المهمة، والرقي كذلك في الأخلاق، أو السلوك، وأمثال ذلك من الاتجاهات النظرية"[9].

وهي مجموعة من "الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"[10]، والثقافة هي جملة العلوم، والمعارف، والفنون، التي يطلب الحذق بها"[11].

فالثقافة إذن هي جملة المعارف والأفكار والأعراف والأخلاقيات والسلوكات الخاصة بمجتمع معين، والثقافات تتمايز وتختلف من مجتمع إلى آخر.

3.3/ مفهوم النسق الثقافي:

هو ركيزة أساسية في الممارسة النقدية كونه ينتج الأدوات النقدية الأدبية وينقلها إلى أدوات نقدية ثقافية، ويكشف عن الحقيقة المضمرة للشخصية الشعرية العربية، والثقافة "تملك أنساقها الخاصة التي هي أنساق مهيمنة، وتتوسل لهذه الهيمنة عبر التخفي وراء أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها قناع الجمالية، أي إن الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخر غير الجمالية ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع "[12].

والنسق الثقافي هو تركيبة اجتماعية منغرسة في أعماق الخطاب، تعبر عن الصورة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما، يصعب اكتشافها بالقراءة السطحية كونها تختبئ خلف السطور، والنسق الثقافي هو عنوان المجتمع وهويته"[13]. و"يتسم النسق من حيث هو نظام بالمخاتلة واستثمار الجمالي والمجازي ليمرر جدلياته ومضمراته التي لا تنكشف إلا بالقراءة الفاحصة، ولا يمكن استبارها إلا بتكوين جهاز مفاهيمي ومعرفي متكامل"[14].

تعدّ الأنساق الثقافية المضمرة أساس النقد الثقافي فهي تحيلنا إلى المرجعيات الفكرية والتراثية والحضارية وهي جوهر العملية الإبداعية وعن طريقها يتبين لنا كقراء نمط تفكير المبدع وواقعه المعيش.

4. الأنساق الثقافية في رواية (اليربوع) لحسين فيلالي

تتعدد الأنساق الثقافية في رواية (اليربوع) وتتنوع، يمكن أن نذكر منها:

1.4.النسق الاجتماعي التراثي الشعبي: يتجلى هذا النسق من خلال خصائص المجتمع الصحراوي وعاداته وتقاليده المضمرة في المنجز الروائي بدءا بعنوانه الذي حمل اسم حيوان "اليربوع" وهو من قوارض الصحراء يعيش في المناطق الحارة القاحلة؛ فالعنوان هو "مؤشر تعريفي وتحديدي ينقذ النص من الغفلة لكونه الحد الفاصل بين العدم والوجود، والعنوان مفتاح الباب الموصد إلى أن يرتضى النص عنوانه ويلفت من العلماء، ويستكين إلى ألفة الوجود ويحوز هويته"[15]. فالعنوان هنا يعبر عن نسق صحراوي ذلك أن حيوان اليربوع له براعة نادرة في هندسة المكان، فهو معروف بالخفة والدهاء، وله بابان واحد سري والآخر معلوم، واستحضاره هنا يحيل إلى **النسق الأنثروبولوجي التراثي** فهو يشترك مع الإنسان الصحراوي في كثير من الصفات، كما أكد ذلك (الراوي/ السارد) في حديثه عن صديقه سليمان الذي يلقب بـ (سليمان اليربوع) وأورد الروائي على لسان سليمان مروية اليربوع الشعبية التي روتها له جدته عندما كان صغيرا يقول: "إن اليربوع كان شابا وسيما، وقويا، وكان مولعا بشرب حليب الغزالة ساخنا، وكان يسابقها فيغلبها ويرضع حليبها، ويتركها تعود ضامرة الضرع اشتكت الغزالة إلى الله أن يخلصها من شر اليربوع الماكر، فأرسل عليه ريحا باردة في يوم مظلم، سخرها عليه سبع ليال، فمسخته، وأصبح على ما هو عليه الآن"[16]، كما أن سليمان يشترك مع اليربوع في تركيبته وشكله الخارجي " كان شكل سليمان كاليربوع: قصير اليدين، طويل الرجلين، وكان كلما حضر وليمة بالبلدة خطف قطعة اللحم من على القصعة، وفر كاليربوع، فلا يقدر على مجاراته أحد من أترابه"[17]، كما يتقاطع مع اليربوع في صفات مضمرة (الخفة، والدهاء، والحيلة..).

يظهر النسق الاجتماعي كذلك من خلال حديث والد (السارد/ البطل) مع ابنه، فكان ينصحه بالعمل والتعب حتى لا تكون يده ناعمة كالأنثى يقول:"الرجل يا بني يجب أن تكون يده خشنة ومنظره مخيفا"[18]، فالرجل الصحراوي يزرع في ابنه الأخلاق الفاضلة وحب العمل والسعي إليه، فهو لا يوفر له المال ويدعوه إلى الكسل، لأن البطل كان دائم العمل يسقي الماء ويحمل المتاع على الحمار ، حافي القدمين، يشعره ذلك بسعادة غامرة.

إن المنجز الروائي يحمل أنساق اجتماعية وشعبية عديدة -إضافة إلى التي ذكرت- وإن **نسق السلطة**

والأبوة والرجولة حاضر في الرواية، لاهتمام المجتمع الصحراوي بالرجل/ الذكر –منذ القدم- كغيره من المجتمعات فالبطل ذكرُ،ويبسط أبوه سيطرته عليه وعلى عائلته لأن الرجل عليه أن يكون قويا صبورا فيه صفات الرجولة والخشونة والدهاء..، يسرد البطل يومياته في بيئته ومجتمعه المثقل بالعادات والتقاليد ومرويات الجدات كما في قول السارد: "عرفت حكايات خوخو في حجر جدتي قبل أفلام الكرتون. آمنت أنه يأتي في صفة طائر صغير، أو رجل نعرفه. وقد يأتي في صفة حيوان، أو يتحول إلى لعبة نشتهيها، فنحملها إلى البيت، فيعود إلى صفته الأولى"[19]، استحضر هذا النسق التراثي (حكاية خوخو) آكل لحوم الأطفال وهي شخصية أسطورية خرافية يتحول من طائر إلى إنسان يعرفه الطفل يغويه ويستدرجه بالحلوى أو الألعاب، عندما يتبعه الطفل يخطفه ثم يأكله وهو قريب من شخصية الغول في الذاكرة العربية الشعبية.

ثم ينتقل (السارد/ البطل) ليتحدث عن الحمار الذي كانت له إشارة بيضاء في أنفه، يقول: " في طريق عودتنا، تحكي لي والدتي عن الحمار، و عن سر مقدمة أنفه البيضاء، فتقول: إنه أدخل رأسه الجنة، فلما رأى الأطفال ولى مدبرا"[20]، وهذا النسق المضمر يحيل إلى تفكير بعض المجتمعات واعتقاداتها الخرافية في بعض المرويات إذ لا يعقل أن يكون الحمار أدخل الجنة ثم خرج، فلا يتقبلها عقل ولا دين والمنجز الروائي مليء بالخرافات والأساطير الشعبية التي تنم عن تفكير المجتمع الصحراوي، ومن بين العقاقير التي كان يبيعها الشيخ مبروك وزوجته مامة الكاهنة: "خليط من بيض الغول، ومخ الضبع، يوصي به الشيخ لترويض الرجال"[21] هذا المقطع يحيلنا إلى النسق الاجتماعي الشعبي المضمر والمتوارى خلف المنجز الروائي ليطلعنا عن بعض المجتمعات التي تمارس السحر والشعوذة وتهافت بعض النسوة لشراء تلك العقاقير من أجل إخضاع الرجال لهن.

ورد في نسق ثقافي شعبي مستمد من المعتقدات العربية الخرافية قول الجاحظ الذي صور كيف أن العرب "إذا شحت السماء، وجدبت الأرض، عمدت إلى بعض الأبقار وجعلت في عراقيبها الحطب، وأشعلت النار فيها، وصعدت بها إلى ربوة، وضجّت بالدعاء والتضرع، ظنا منها أن ذلك سيجلب لها المطر"[22]، وهذا ما استحضر الذاكرة الشعبية التي تنم عن تفكير بعض المجتمعات وتصور الواقع المعيش المرتبط بالتراث.

2.4.النسق السياسي:

ينضوي تحت هذا النسق عدة أنساق منها:

1.2.4.نسق الفساد/الحاكم:

يدل هذا النسق على نظرة (السارد/ البطل) للحاكم في بلدنا فهو يشبه إلى حد بعيد حيوان (اليربوع) يقول: "الحاكم عندنا كاليربوع، دائم التوجس، يغلق الأبواب والنوافذ، ويتخذ منفذا سريا، وينام مفتوح العينين"[23]، يظهر عبر هذا النسق بعض الدلالات المضمرة التي أحالت إلى الفساد والحذر والخطر والتوجس والخوف، فالحاكم دائم الحذر لظلمه ولا مساواته بين الرعية، فيترقب الانتقام أو الهلاك كل حين.

2.2.4.نسق الصراع:

هو صراع بين المثقف والحاكم، فالسارد مثّل صورة المثقف الحامل للشهادات في بلدنا وإهدار ميزانية البيت بشرائه للكتب، ونظرة المجتمع له ونقم زوجته عليه فهي تعيره بالجارة سميرة التي طردت من المدرسة في الصف الابتدائي غير أنها مسؤولة اليوم في الدولة وتملك ما لا يملكه الأستاذ الجامعي، يحيل هذا النسق إلى أن بعض الحكام في البلاد غير مؤهلين أو يفتقرون للشهادات المطلوبة فهم في غير مكانهم وهذا نفي لمقولة "وضع الرجل المناسب في المكان المناسب"، وهذا ما كان يثير سخط (السارد/ البطل) كونه أستاذا جامعيا

وطلب منه أن يكون نائب إسكافي في الانتخابات التشريعية في قوله: " أو ذاك الإسكافي الذي ترشح للانتخابات التشريعية واقترح أن يكون الأستاذ الجامعي نائبا له"[24]، وكأن هذا النسق المستحضر هو استصراخ واستنفار للسارد/ المؤلف لما يحدث للمثقف الجزائري من احتقار وتهميش فهو لا يساوي شيئا ولا قيمة له مقابل أهل السياسة وبعض الحكام الذين ينهبون وينعمون بالسعادة، في حين أن هذا المثقف -وخاصة إن كان أستاذا جامعيا- يعاني الفقر وأغلب أمواله يصرفها على الكتب أو يعيل بها عائلته.

3.2.4.نسق القوة/ الضعف:

يرى (السارد/ البطل) أن الشباب هم محور المجتمع فهم يمثلون القوة والضعف بحسب توظيفهم لقدراتهم، ولهم دور سياسي مهم إلى جانب دورهم الاجتماعي، فهم يملكون أجسادا قوية وخاصة أولئك الذين يتدربون في قاعات كمال الأجسام فلم لا يذهبون لتحرير القدس..يقول: "لو أن الأمر بيدي لأخذت هؤلاء الشباب أحرر بهم القدس"[25]، وكأن في هذا النسق دعوة صريحة من السارد إلى الشباب الذي يضيع وقته ليقوي بنيته وجسده ناعم كالفتيات، إذ عليه الذهاب إلى القدس للجهاد ومشاركة إخوانه الفلسطينيين في قضيتهم السياسية وتحرير بلدهم.

4.2.4.نسق كبت الحرية:

يتجلى هذا النسق -في المنجز الروائي- في الثورة التي لطالما أقامها الساسة والعسكر على المثقف بنسق مضمر مخبوء وراء النص الروائي بغرض كتم الأفواه عن قول الحق، وفي الظاهر بدعوى البحث عن كتاب محظور أو مقال يدس السم للسياسيين والحكام، يقول (السارد/ البطل): " .. لأن العسكر، و الشرطة كثيرا ما داهموني ليلا في غرفة نومي، بدعوى البحث عن كتاب محظور، أو مقال مستور. وكم كنت أحزن، و أنا أسمع الكتب تئن تستغيث، وأنا عاجز عن نجدتها، فتطل من الذاكرة صورة بغداد وهي تحترق تحت حوافر خيل التتار و قنابل الأمريكان، وأرى نهر دجلة يتغير لونه، و كتبي الممزقة تأخذ شكل جماجم بشرية، تصل إلى السقف"[26]، كما أفصح هذا النسق عن صورة بغداد وهي تئن تحت وطأة الأمريكان..

3.4.النسق الصوفي:

تجلى في اللحظات التراثية الصوفية في أكثر من موقف في حديث الراوي عن (الشيخ مبروك) الذي تخير له هذا الاسم **مبروك** ليدل على حلول البركة والخير ..، ولما كان يقوم به من طرائق وشطحات صوفية خاصة، يقول: "إيقاعات الدف تتغير، ومعها تتغير ملامح الوجوه تحمر الوجان وتيبس الشفاه، والشيخ يدخل في حالة جديدة من الوجد، والتوحد، يلقي عمامته داخل الدائرة ويصيح: حي، حل الجوهر في الفاني تجحظ الأعين، وتمتد الأيدي باتجاه أباريق الماء الموضوعة فوق النار، ويبدأ ابتلاع الجمر، وشرب الماء المغلي. يمتزج العرق بالعطر، وبالبخور المحضر من نبتة مجهولة، ذات رائحة غريبة، مثيرة للأعصاب مهيجة للعاب، لا يعلم أسرارها إلا شيخ الطريقة"[27].

إن هذا المشهد يحيلنا مباشرة على النسق الصوفي لما يحمله من دلالات الصوفية: الوجد، التوحد، يبتلع الجمر، البخور..، إلا أن الراوي مزجه ببعض الخرافات والطقوس التي يقيمها الشيخ مبروك الذي جمع بين التصوف والشعوذة والجهل..، فالشيخ له نبتة مجهولة يأخذها كل ليلة جمعة ممتطيا الطائر فيما يشبه البراق ليطوف به نحو أتباعه ومريديه ليشفيهم من الأسقام ويبارك لهم ويمنحهم الطريقة، "في غرفة الشيخ المظلمة حيوانا عملاقا نصفه طائر، والنصف الآخر يشبه الفرس، وربما يكون البراق، يركبه الشيخ كل ليلة جمعة ليتفقد مريديه، و يطعمهم من النبتة الغريبة حتى لا تقربهم الشياطين، و تفتنهم عن العبادة و توقعهم في أهواء الجسد الفاني"[28].

وللشيخ عجائب مدهشة لـ "أنهم شاهدوه كل ليلة أربعاء يدخل دهليزا مظلما تحت مقصورته، ويحمل لحما نيئا، و أباريق الماء الممزوجة بالدم، و لا يخرج من خلوته حتى صباح يوم الخميس"[29]، فهو يتعبد بطريقته ولا يخرج من دهليزه المظلم حتى يوم الخميس، وقيل أنه يحتجز تحت مقصورته بعض الجان ممن اعتنق طريقته الصوفية، بغية تسخيرهم لجلب عقاقير أمراض النساء المستعصية على الطب[30].

فالمنجز الروائي زاخر بالأنساق الصوفية الممزوجة بالخرافة لتعرفنا على جانب من شخصية (الشيخ مبروك) ويومياته.

5.4.النسق الفني الأدبي

يظهر هذا النسق من خلال حديث الروائي عن مدينة العبادلة فهي بلد الشعر والشعراء ويستحضر هذا المكان بعراقته وفنيته وشاعريته إلا أنه أصبح موحشا منفرا بعد أن كان مألوفا، يقول: "العبادلة وكأنها تحتضر، بدأ السهل يشيخ قبل الأوان،حتى الخيل، والماشية التي كانت تعمر بطاحه بدأت تنقرض في صمت. لم يعد سهل قير كما تغنى به الشعراء :

كنت ملجأ الفقير والأرملة.

و كل من جاع يهرب إليك.

كانوا فيك فرسان معروفين بالنجدة.

و اليوم أصبحت يتيم لا من يسال فيك"[31].

يستحضر الروائي تلك الأبيات الشعرية المزدوجة بين الفصيح والملحون، فهو يتحسر على المكان وما آل إليه.

جاءت الرواية محملة بأنساق فنية أدبية منها ما ذكره الراوي عند استحضاره لبيت الشاعر الجاهلي لبيد ابن ربيعة العامري:

رزقت مرابيع النجوم وصابها *** ودق الرواعد جودها فرهامها

من كل سارية وغاد مدجـــــن *** وعشية متجاوب إرزامـــــــها[32].

فاستحضار هذا النسق جاء نتيجة حديث السارد عن زوجته التي كلما دخل البيت تمطره بوابل من الأسئلة والملاحظات والإهانات..، لأنها ترى أنه يبذر أمواله في شرائه للكتب التي لا تجدي نفعا.

يتجلى النسق الفني عند ذكره لشخصية وهب بن عامر الذي كان يملك مخطوطات مهمة عرضوا عليه بيعها إلا أنه أبى وقال: "لقد أعطاني شيخي السر ثم أنشد:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهـــــــــم *** وكذا دماء العاشقين تباح

ركبوا على سفن الوفاء دموعهم *** بحر وشدة شوقهم ملاح".[33]

وهذا يدل على وفاء الرجل (وهب) وعدم بوحه بالطريقة التي أسرها له شيخه. كما ذكر على سبيل النسق الفني الأدبي أبيات الشاعر مفدي زكريا على لسان الرئيس يقول: "رحم الله الشاعر الجزائري مفدي زكريا القائل:

لا نرتجي العدل من قوم سماسرة خير البرية منهم غير منتظـــــــــــــــــــــر.

مصيرنا بالدم الغالي نقـــــــــــــــــــــــــــــــرره في محفل الموت لا في عقد مؤتمر"[34].

إن حديث الروائي عن قضية فلسطين وغزة حركت فيه المشاعر والعواطف، فالرئيس انتفض على الوضع ودفع بالشعب لتحرير وطنه وهذا النسق وإن كان سياسيا إلا أن استحضار الروائي للأبيات الشعرية دلت على جماليته وفنيته فشاعر الثورة الجزائرية يرى أن العدل والحرية لا تؤخذ إلا بالتضحيات الجسام وبالحرب لا بالشعارات السلمية المغرية.

6.4 النسق التاريخي:

1.6.4.نسق المرأة اللغز:

يتجلى هذا النسق من خلال بعض المرويات التاريخية التي ذكرت في المنجز الروائي منها: مروية راهبة الصحراء إيزابيل فيما يشبه الأساطير، إذ حلت بأرض القنادسة ببشار أيام الاستعمار الفرنسي، و هي تعرف لديهم باسم سي محمود المتصوف الذي لازم زاوية سيدي أمحمد بن بوزيان منذ سنوات؛ فاطمئن إليه أهل القنادسة وآووه دون تحفظ و ما يزال أهل القنادسة يرون حكاية اكتشاف سر المرأة الرجل الراهبة، و يقولون: إن أحد عبيد الزاوية شك في تصرفات الرجل، المرأة فراقبه عندما ذهب إلى الخلاء لقضاء حاجته في برقة القنادسة، فاكتشف السر مرسوما على الرمل.. المرأة، الأديبة، الرجل، الراهبة، إيزابيل إ يبرارت انتهت حياتها في جوف واد العين الصفراء[35]، تركت هذه المرأة لغزا محيرا في تقمصها لشخصية رجل وهي امرأة (فستان الجاسوسة إيزابيل إيبرارت).

ويستحضر الروائي أنساق تاريخية عديدة عبر عنها عن طريق شخصيات تاريخية مثل: (الجازية، قبيلة بني هلال، ذياب الزغبي، عنترة بن شداد العبسي، الزناتي خليفة) وغيرهم ممن كان لهم مجد وعز وشرف وشجاعة ومروءة.

يذكر المنجز الروائي قول (ابن خلدون)، في مقدمته في الفصل السابع والثلاثين: "اعلم أن الحروب و أنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله. و أصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبية. فإذا تذامروا لذلك، وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل. وسبب هذا الانتقام في الأكثر: إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده"[36].

يحيل هذا النسق على أن الحرب قائمة بين بني البشر منذ الأزل بسبب الانتقام (لغيرة، أو منافسة، أو ملك دنيوي، أو بسبب عقائدي ديني)..، فالحروب متأصلة ومتجذرة تاريخيا ولا يمكن نكرانها.

ثم يختم الروائي كلامه في الصفحة الأخيرة من الرواية قائلا:" -قلت : الاستعمار كخوخو، مخادع، يغير لونه، وشكله يجيد الختل، و لا يمل من المطاردة"[37]. يشبه الروائي الحاكم والظالم والمستعمر تارة باليربوع وتارة أخرى بالشخصية الأسطورية (خوخو) فهو يتقاطع معها في الخداع والنفاق والمؤامرة والمكيدة والظلم والتعسف وهذا ما شهده تاريخ الجزائر تحت نير المستعمر الفرنسي من آلام وتنكيل ومكائد بقيت آثارها إلى اليوم.

5.خاتمة:

ختاما يمكن استخلاص النتائج الآتية:

1. يتميز النقد الثقافي بشموليته ودقته فهو يتجاوز كل ما هو جمالي وبلاغي لسبر أغوار الأنساق الثقافية المضمرة في النصوص الأدبية.

2. تتوفر رواية (اليربوع) على أنساق ثقافية عديدة ومتنوعة.
3. ينطلق الروائي عبر أنساقه الثقافية من حيوان (اليربوع) الذي تختص به الصحراء الجزائرية ليضفي على نصه المختار طابع الخفة والحذر والدهاء والصبر والسرعة وبعض الدلالات التي يفصح عنها العنوان.
4. أسهمت الأنساق الثقافية في الرواية المختارة بترسيخ الهوية الوطنية والمحافظة على التراث الصحراوي.
5. كشفت الأنساق الثقافية في رواية (اليربوع) الواقع المحلي الصحراوي، والأبعاد الاجتماعية والسياسية والتاريخية المضمرة داخل المنجز الروائي.
6. عكست الأنساق الثقافية دلالة المكان (نسق الصحراء) لما تحمله الصحراء من ثقل تراثي وأنثروبولوجي وتاريخي ينم عن محافظتها على القيم وتمسكها بالثوابت وتوطين الذات وتفاعلها مع متغيرات الحياة.
7. أفرز النسق الاجتماعي التراثي والشعبي عدة أنساق محايثة كنسق السلطة، النسق الأنثروبولوجي..
8. تفرع عن النسق السياسي عدة أنساق كنسق السلطة، القوة والضعف، نسق كبت الحريات..
9. من الأنساق الصوفية طريقة الشيخ ومباركته لمريديه ونبتته المجهولة وطائر البراق، ودهليزه المظلم..
10. جاء المنجز الروائي مثقلا بالأنساق الفنية الأدبية من خلال الأبيات الشعرية والشخصيات الأدبية المستحضرة (مفدي زكريا، عنترة بن شداد، لبيد بن ربيعة العامري، الجاحظ، أبيات السهروردي..).
11. من الأنساق التاريخية ذكر بعض الشخصيات والمقولات التاريخية (الجازية، ذياب الزغبي، الزناتي، ابن خلدون)..

من الاقتراحات والتوصيات:

- الاهتمام بالسرد الجزائري ومساءلات الأنساق الثقافية من قبل الباحثين والدارسين.
- التركيز على النسق الثقافي في المنجزات الروائية الجزائرية.
- عقد ندوات ودورات تولي أهمية كبرى بالأنساق الثقافية في السرد الجزائري ودورها الفعال في المحافظة على التراث وإبراز الخصوصية المحلية.
- اهتمام الروائيين الجزائريين بالمحلية والمثاقفة في منجزاتهم الروائية.

6. الهوامش:

[1] **ينظر: حسين فيلالي، اليربوع، دار الثقافة، ط1، بشار ، 2011.**

[2] **ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط1، المجلد السادس، بيروت، لبنان، 1999، ج 49، ص: 4412.**

[3] **أبو عبد الرحمان بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط2، إيران، 1409هـ، ص: 45.**

[4] **أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص: 43.**

[5] **نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب؛ دراسة معجمية، منشورات جدارا للكتاب العالمي، ط1، عمان الأردن، 2009، ص: 140.**

[6] **أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الفكر، 1979، ص: 382.**

[7] **ابن السكيت، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، ، ج9، ط1، بيروت، لبنان، 2001، ص: 81.**

[8] **ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، ج6، مصدر سابق، ص: 492.**

[9] **نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، ص: 9.**

[10] **مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر دمشق سوريا، 1984، ط4، ص: 74.**

[11] **ينظر: مفرح بن سليمان القوسي، مقدمات في الثقافة الإسلامية، الرياض، ط3، 1424، ص: 36.**

[12] **عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص: 83.**

[13] **سماح عبد الفران، ثقافة النص، قراءة في السرد اليمني المعاصر، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2016، ص: 17.**

[14] **يوسف محمد عليمات، النقد النسقي؛ تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر، ط1، الأردن، 2015، ص: 09.**

[15] ينظر: خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، (دمشق)، 2007، ص: 495.
[16] حسين فيلالي، اليربوع، ص: 13.
[17] المصدر نفسه، ص،ن.
[18] المصدر نفسه، ص: 10.
[19] المصدر نفسه، ص:92.
[20] المصدر السابق، ص: 11.
[21] المصدر السابق، ص: 18.
[22] المصدر السابق، ص: 21.
[23] المصدر نفسه، ص: 20.
[24] ينظر: المصدر السابق، ص: 21-24.
[25] المصدر نفسه، ص: 10.
[26] المصدر نفسه، ص: 22.
[27] المصدر السابق، ص: 05.
[28] المصدر نفسه، ص: 06..
[29] المصدر نفسه، ص، ن.
[30] المصدر نفسه، ص: 06.
[31] المصدر نفسه، ص: 07.
[32] المصدر نفسه، ص: 21.
[33] المصدر نفسه، ص: 54. البيتان للشاعر والفقيه شهاب الدين السهروردي.
[34] المصدر السابق، ص: 41.
[35] ينظر: المصدر السابق، ص: 52.
[36] المصدر نفسه، ص: 53-54، مأخوذ عن: المقدمة –تاريخ العلامة ابن خلدون-دار الكتاب اللبناني-ط1982، ص: 479
[37] المصدر نفسه، ص: 93.